ثالثا : أهمية الكتابات العربية في الدّراسات الأثرية المعاصرة

تعد النقوش الكتابية العربية الإسلامية من المصادر الأثرية التي يصعب الطعن في قيمتها أو التشكيك في أصالتها ، فهي من جهة معاصرة غالبا للحقائق والأحداث التي تسجلها ، كما أنها محايدة فتعوض النقص وتسد الفراغ في المصادر التاريخية ، كما أن تواريخها صحيحة غالبا والأعلام التي تذكر بها يقل فيها التحريف والتصحيف ، وعلى ذلك فهي مفيدة جدا في مراقبة أقوال المؤرخين وإثبات صحتها أو كشف أخطائها .

وانطلاقا مما سبق فإنه وجب على الباحثين أن يولوّا وجوههم شطر النقوش الكتابية الأثرية للاستفادة منها في دراسة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية من كافة الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية .

وقد كان للدراسات الاستشراقية في التاريخ المعاصر دور هام وبارز في دراسة النقوش الكتابية الأثرية ، فقد أرست أبحاثهم دعائم هذا الميدان على أسس متينة ، سواء من حيث نشرها وتصنيفها أو من حيث دراستها وتحليلها وإبراز قيمتها ، ونذكر من هؤلاء المستشرقين ماكس فان برشام ، جروهمان ، كولان ، كريزويل وغيرهم ، ورغم أنه لا يمكن إنكار الدور البارز لهؤلاء المستشرقين في هذا المجال إلا أن الأدلة التاريخية تؤكد أن هناك بعض المؤرخين والرحالة المسلمين كان لهم قصب سبق في هذا الباب ونذكر من أمثلتهم الفاسي (ت 832 هـ) والشيبي (ت 837 هـ) والجبرتي (ت 1240 هـ) .

ويصرح الفاسي عند حديثه عن دوافع تأليف كتابه العقد الثمين بالمصادر التي اعتمد عليها ومن ضمنها النقوش الكتابية فيقول " ... وسبب جمعي له أن نفسي تشوفت أيضا كثيرا إلى معرفة ما كان بعد أبي الوليد الأزرقي من أخبار هذه الأمور وإلى معرفة ما وقع بعده من الأوقاف بمكة على الفقهاء والفقراء وغير ذلك من المدارس والربط وغير ذلك ، فعرفت من ذلك طرفا جيدا بعضه من كتب التاريخ التي نظرتها لأجل التراجم ، وبعضه من أحجار ورخام وأخشاب مكتوب فيها ذلك ثابتة في بعض الأماكن المشار إليها وبعضه علمته من أخبار الثقات وبعضه شاهدته ... " .

وقد اعتمد الفاسي على كثير من الكتابات الشاهدية بمقبرة المعلاة بمكة المكرمة في نقل وفيات الكثير من الأعلام ، كما نجده أحيانا يقارن بين ما ورد في المصادر التاريخية وبين هذه

الكتابات الشاهدية ، فمثلا عند ترجمته للشيخ محمد بن عبد الله بن الفتوح المكناسي يقول " ولم يذكر الميورقي وفاته ، ووجدتها على حجر قبره بالمعلاة عند حائط قبر الشولي بخط عبد الرحمان بن أبي حرمي وترجمه بالفقيه الإمام العالم العامل ... وأرخ وفاته بيوم الخميس العاشر من جمادى الأولى سنة اثنين وتسعين وخمسمائة " ، وعند ترجمته للشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله الشاطبي يقول أن القسطلاني لم يذكر له وفاة وأنه نقل وفاته واسم أبيه من حجر قبره وترجم بالشيخ الصالح وتوفي يوم الثلاثاء الثالث من شهر ربيع الآخر سنة ثلاثة وثلاثين وستمائة ودفن بالمعلاة .

اعتمد الفاسي أيضا على النقوش التأسيسية والوقفية ببعض المساجد والمدارس والربط ومن ذلك مثلا ما ذكره عند حديثه عن رباط القاضي أبي رقيبة حيث يقول " ونقلت هذا من رباط الحجر المذكور " ، ومن أمثلته أيضا ما ذكره في ترجمة الشيخ محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم المراغي القاضي إذ يقول " وهو صاحب الرباط الذي على باب الجنائز بمكة المعروف ببيت الكيلاني كما في الحجر الذي على بابه وفيه أنه أوقفه على الغرباء الواصلين إلى محروسة مكة حرسها الله تعالى النازليه فيه والمجتازين وغيرهم من العرب والعجم في ذي الحجة سنة خمس وسبعين وخمسمائة " .

أما المؤرخ الثاني وهو الشيبي فقد اعتمد على الكتابات الشاهدية كثيرا في كتابه الموسوم بـ " الشرف الأعلى في ذكر قبور مقبرة باب المعلا " .وقد صرح بالعودة إلى شواهد القبور عند حيثه عن دوافع تأليف الكتاب حيث يقول " وبعد فقد خطر لي أن أكتب في هذه الأوراق بعض ما قرأته على القبور التي بمقبرة مكة المشرفة المسماة بالمعلاة " وفي موضع آخر يصرح بفائدة هذه الكتابات كثيرا ويحث على وجوب الاستفادة منها والمبادرة بذلك قبل ضياعها حيث يقول " فإن الأحجار معرضة لزوال ما عليها من الكتابة إما بطول الزمان أو بغير ذلك من الأسباب " .

وقد صرح الشيبي في عدة مناسبات أنه التزم الأمانة في نقل ما وجده على هذه الأحجار مثل قوله " هذا صفة ما وجدته ونقلته من غير تغيير ولا تبديل " ، وقوله في موضع آخر " انتهى ما وجدته على الحجر ونقلته حرفا حرفا " ، وفي قراءته لشاهد قبر الشيخ أبي النعمان بشير بن أبي بكر الجعفري يظهر نموذج آخر لأمانته العملية ولمقارنته بين الشواهد والمصادر التاريخية ويقول "انتهى ما قدرت عليه من قراءة ما على الحجر المذكور وقد انمحا ما عليه من طول الزمان ...

ولم يشكل علي إلا الكلمة التي بعد قوله قبض فلا أدري هل هي يوم وليلة أو ليلة ، وأما التاريخ فإنه كما نقلته ولا شك ولا خفي وهو غريب " ويقصد بغريب أن المصادر التاريخية ذكر تاريخ وفاته شهر صفر 646 هـ ، وهو تاريخ غير الذي وجده على الشاهد وهو 633 هـ .

وكان الشيبي في قراءته لهذه الشواهد يحدد أحيانا أنواع الخطوط ويقارن بينها ، يقول عن أحدى الآيات القرآنية التي تتكرر كثيرا " ... المكتوب عليها هذه الآية الكريمة العظيمة ما لا يحصى كثرة بالخط الكوفي الأول والمولد الحسن معا " ، وفي موضع آخر " ... ومنها حجر مكتوب عليه بخط حسن يشبه خط الحجر الأول " .

وبالتالي نلاحظ من كلام الشيبي إلى أنه أعطانا جملة من القواعد في التعامل مع النقوش الكتابية للاستفادة منها بشكل صحيح منها الوصف الجيد للكتابة وحالتها والأمانة العلمية في قراءتها دون زيادة أو نقص ، كما ينوه بضرورة مقابلة النقوش بما هو موجود في المصادر التاريخ وترجيح صواب الأولى على الثانية إن وجد بينها تباين واختلاف ، بالإضافة إلى تحديد نوع الخط إن أمكن .

أما الجبرتي فقد صرح هو الآخر في مقدمة كتابه بأنه اعتمد من جملة مصادره على الكتابات الشاهدية أيضا في قوله " ولما عزمت على جمع ما كنت سودته ... فرجعنا إلى النقل من أفواه الشيخة المسنين ، وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين ، وما انتقش على أحجار ترب المقبورين " .

وهكذا نخلص مما سبق إلا أن دراسة النقوش الكتابية المختلفة موضوع هام جدا ، فهي مصادر تاريخية حية تمدنا بالكثير من الأخبار والمعطيات خاصة ما تعلق بأسماء العلم من الخلفاء والأمراء والولاة والعلماء وغيرهم ، كما تعطينا تواريخ مهمة وصحيحة غالبا تساعدنا في فهم وتفسير كثير من الأحداث السابقة ، وهذا هو جوهر الفائدة من دراسة النقوش الكتابية بالإضافة إلى فوائد أخرى تتعلق بالجوانب الفنية مثل دراسة أنواع الخطوط العربية وتطورها وطرق تنفيذها وأنواع المواد التي كتبت عليها .

نخلص مما سبق أيضا إلى مسألة مهمة وهي أن التفطن إلى أهمية النقوش الكتابية الأثرية ودورها في الدراسات التاريخية ليس وليد اليوم وليس بدعة أتى بها المستشرقون في التاريخ المعاصر بل هو باب طرقه المؤرخون العرب والمسلمون قبل ذلك بقرون ونوهوا بفضله وألحوا على الاستفادة منه ، مع عدم إنكار أن المستشرقين كان لهم فضل كبير في إعادة إحيائه وبعثه

ووضع أسس وقواعد ومناهج في التعامل معه ، بالإضافة إلى استكشاف جزء كبير من النقوش العربية في مختلف أنحاء العالم وتصنيفها ونشرها .